دراسة تحليلية لكتاب (من روائع القرآن)

للأستاذ الدكتور شهيد المحراب محمد سعيد رمضان البوطي

إعداد شريف محمد مراد

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

اسم الكتاب:

اسم الكتاب الذي أتناوله بالبحث هو" من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل " وهو من تأليف الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: ومن منشورات مؤسسة الرسالة في بيروت والشام، والكتاب طبع أولَ مرة في عام ١٩٧٥ م وتوالت طبعاته حتى كان بعده بسنتين وصل إلى الطبعة الخامسة.

الهدف من الكتاب:

في الحقيقة كتاب رائع، ولم يقصد المؤلف من تأليفه أن يبين فنون علوم القرآن الكريم كما أوضح ذلك في المقدمة، إنما قصد أن يوضَّح ويُبَيِّن بعض ما ينطوي عليه هذا الكتاب من روعة البيان وإعجازه، والقصد منه أيضاً أن يجعله منهاجاً لطلاب كلية اللغة العربية في جامعة دمشق وجامعة اللاذقية،

والهدف الثاني من الكتاب: أن يقف القارئ لهذا الكتاب وقفة المتأمل الخاشع، خاصة طلاب كلية اللغة العربية لا بد لهم أن يتعرفوا على ينبوع الأدب ومصدره؛ ألا وهو القرآن الكريم، وهو ميزان جميع العلوم وخاصة علوم العربية، أي الغرض منه إنما يتناول منه كل ما يخص العربية وعلومها وآدابها.

وكان رحمه الله تعالى يقول: بعد أن أوضح ضعف طلاب العربية باللغة العربية وعلومها " فمن أجل ذلك اضطررت إلى أن أكتب بضع صفحات في هذا الفن، أتيمم فيها حاجة الأدب العربي وكفايته، وأستهدف من ورائها أن يتذوق طلاب العربية هذا السمو الرائع في البيان القرآني، تذوقاً جيداً فإنهم إذا تذوقوه طربوا له،

وإذا طربوا له أقبلوا إليه قراءةً وفهماً، وإذا أقبلوا إليه بهذا الشكل، استقامت ألسنتهم وتخلصت من عِوج العامية ورطانتها وتذوقوا الأدب العربي في كل فروعه وجوانبه".

وحتى يُحقق هذا الهدف قسم كتابه إلى قسمين:

القسم الأول: تحدث بشكل مختصر عن تاريخ القرآن وعلومه.

وفي القسم الثاني: تحدث عن منهج القرآن وأسلوبه.

فكان حديثه في القسم الأول: عن تعريف القرآن الكريم ونزوله منجماً وأسباب نزوله، ثم طريقة جمع القرآن الكريم، ورسمه، والأحرف السبعة، والقراءات والقرّاء. ثم عن المكي والمدني، ثم عن التفسير ونشأة التفسير وتطوره ومذاهبه. وأخيراً تكلم عن المبهم والمتشابه في القرآن الكريم. وفي تمهيد ثاني تكلم عن أهمية القرآن الكريم في الأدب العربي، من خلال طرحه لسؤال. وهو ما وجه الحاجة إلى دراسة القرآن في الأدب العربي. ثم أجاب عن ذلك بقوله "لهذا الكتاب العظيم أهمية بالغة من جوانب مختلفة متعددة، فكما لكل باحث في علوم الشرعية من فقه وتشريع وعقيدة حاجة إلى دراسة هذا الكتاب، فأيضاً للباحث في الأدب العربي حاجة إليه؛ لأن لهذا الكتاب جانباً أدبياً أصيلاً بعيد الجذور في تاريخ الأدب العربي"، وهو الذي ساعد على تطور اللغة العربية وتقويمها وتوجيهها.

تعريف القرآن:

وعرفَّ القرآن بأنه: اللفظ العربي المعجز، الموحي به إلى محمد (ص)، المتعبد بتلاوته، والواصل إلينا عن طريق التواتر. فالقرآن المعجز؛ لأنه أعجز البلغاء العرب وغيرهم أن يأتوا بمثل بلاغته وبيانه. الموحى به: أي المنزل عليه من الله بواسطة جبريل، وحاول أن يرد على أولئك الذين حاولوا أن يمدوا غاشية من الغموض على هذه الكلمة، فبعضهم قالوا بأن المعنى المراد من الوحي بأنه نوع من الإلهام النفسي وقال آخرون بأنه الإشراق الروحي، وقال ثالث بأنه ضرب من الصرع والجنون.

ثم رد عليهم بقصة الرسول وهو في الغار ومجيء جبريل عليه السلام إليه وأمره بالقراءة ثم خوفه، وتكرار هذه الحالة. فمن أجوبتها كمثال أنه قال: إن شيئا من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي، لا يستدعي الخوف والرعب واصفرار اللون، كما لا يمكن لصاحب الإشراق أن تتجسد له إلهاماته أمام عينيه

فجأة. وأضاف أدلة أخرى مثل أنه كان معروفا بأنه الصادق الأمين قبل الرسالة، وأنه كان أمياً لا يجيد القراءة والكتابة. والتعبد بتلاوته: أي القارئ يكسب الأجر بمجرد قراءته. وصوله إلينا عن طريق التواتر: أي وصل عن طريق جمع غفير لا يمكن اتفاقهم على الكذب، وترويها عن جموع مثلها إلى الناقل الأول. وبهذه الشروط الأربعة يتميز عن الحديث النبوي أو الحديث القدسي، أو الترجمة الحرفية أو غير الحرفية للقرآن.

نزول القرآن منجماً والحكمة من ذلك:

يقول الله تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا). وقول الله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا). ومن هاتين الآيتين نعلم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة كما نزلت الكتب السابقة؛ بل نزل منجماً.

والتنجيم: هو أن ينزل عليه (ص) آيتين أو ثلاث آيات أو حتى سورة كاملة.

ولم ينزل القرآن دفعة واحدة كما نزل التوراة على سيدنا موسى. وظلت آيات هذا الكتاب المبين تتابع على مهل وتدّرج، حتى نزلت أخر آية منه قبل وفاته (ص) بتسع ليالٍ، وهو قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) من سورة البقرة.

الحكمة نزول القرآن منجماً: منها مثلاً:

أولا: كان الرسول يتلقى أذىً كبيراً من قومه من أجل نهوضه بينهم بتبليغ رسالة ربه، وقد لاقى من ذلك أنواع الشدائد التي جعلته بينهم مدة طويلة غريباً لا ناصر له. ولقد كان لاتصال الوحي به إذ ذاك وتتابع نزول الآيات عليه تشدُّ من أزره، وتحمّلهُ على الصبر والمصابرة، وتعده بالنصر والتأييد في النهاية، كان لذلك أبلغ الأثر في مواساته وتخفيف تلك الشدة عنه وإزاحة معاني الغربة والضعف عن نفسه، فمن هذه الآيات مثلاً قوله تعالى: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى). ثم هو بشر وكونه من البشر فيعني أن تجري عليه ما يجري على البشر من الاحساس بالوحشة والغربة، فلو انقطع عنه الوحي لشعر بالوحشة والغربة، أما وتنزل عليه الآيات مرة تلو المرة فيعيده إلى الأمن والانشراح والانس والرضى.

ثانياً: كان رسول الله أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فليس لديه من الوسائل الكسبية ما يضبط حفظه إلا وسيلة التكرار، فكان لابد من نزول الآيات بتدرج وخلال فترات متقطعة من الزمن حتى يكون السبيل إلى حفظه ووعيه أيسر (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ).

ثالثاً: نقل الناس بالتَّدرج من حالة الفوضى إلى حالة التنظيم بالقواعد والقوانين فقد احتوى القرآن على جميع الأحكام التي تتعلق بالعبادات والمعاملات والأحوال الشخصية أو العقوبات الدستورية والمالية. وكان العرب قبل الإسلام متفلتين عن كل قيد لا يخضعون لقانون ولا يربطون بأي تنظيم، وكان من العسير عليهم أن ينتقلوا من تلك الحالة في طفرة مفاجئة . إلى التقيد بعامة أحكام الإسلام ونظمه وقوانينه. فمن أجل ذلك أخذهم القرآن في ذلك بالوسيلة التربوية التي لا بد منها وهي وسيلة التدرج في نقلهم من حالة الفوضى والتفلُّت، إلى حياة النظام فنزلت أولاً الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلائلها، حتى إذا آمن الناس وثابوا إلى عقيدة التوحيد، نزلت آيات الحلال والحرام وعامة الأحكام في مهل وتدّرج.

رابعاً: كان أغلب الأحكام التي تضمنها القرآن الكريم جواباً عن أسئلة أو حلاً لمشكلات واقعة، حتى تكون أوقع في النفس وألصق بالحياة. مثل ذلك قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ يسألونك عن اليتامى. . .) وقوله: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ. . .). وهكذا، فقد نزلت كل منها حلاً لمشكلة حدثت.

خامساً: لحكمة الناسخ والمنسوخ، فمن رحمة الله بعباده أخذ الناس بالتدرج في بعض الأحكام مثل مسألة التدرج في تحريم الخمر على ثلاثة مراحل وكل مرحلة تنسخ حكم المرحلة التي قبلها وهذا لا يتم إلا بنزول القرآن منجماً على فترة طويلة من الزمن. واكتفى بهذه الحكم كالنماذج مع وجود غيرها.

ومما يميز الدكتور عن غيره من الكتاب فهو كلامه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشريته، فهو أظهر في هذا الموضوع أن محمداً صلى الله عليه وسلم من البشر وتجري عليه ما يجري على بقية البشر من الشعور والإحساس، ويتألم ويتضايق ويحزن وهذا لا يعتبر نقيصة فيه صلى الله عليه وسلم، بل من أصل خلقته صلى الله عليه وسلم، وهو دليل على رسالته ونبوته وأنه ليس من الملائكة، وإنما هو من البشر، في حين يحاول بعض الكُتَّاب أن يتكلموا عن عبقريته وذكائه وينفوا عنه المعجزات إرضاءً للمستشرقين الذين لا يؤمنون بما هو خارج عن نطاق المحسوس، وقد أوضح هذه الفكرة في كتابه فقه السيرة النبوية، عندما قالوا هناك بعض من المسلمين

يحاولون أن ينفوا حادثة الوحي وتأييد الله لرسوله بالمعجزات ببعض الأمراض مثل الصرع و المس من الجن، فإذا قبله الناس جاءوا بعد سنوات لينفوا عنه ما هو أكبر من هذا، فينكروا نبوته ورسالته، فأوضح الدكتور أن بشريته دليل آخر من أدلة رسالته ونبوته، فهو من البشر أرسل إليهم، يكلمهم بلسانهم ويحاججهم ليكون حجة عليهم غداً أمام الله تعالى.

أسباب النزول في القرآن الكريم:

طائفتين من الآيات بالنظر لأسباب النزول:

فأما الطائفة الأولى منها – وهي التي تتعلق بالتشريع والأحكام والأخلاق – فمعظمها كان نزوله مرتبطاً بأسباب ووقائع.

أما الطائفة الأخرى – وهي التي تتحدث عن الأمم الغابرة وما حل بها أو عن وصف الجنة والنار والقيامة – ففيها الكثير مما نزل ابتداء بدون سبب أو واقعة معينة.

وهناك حكمة من ارتباط الآيات بأسباب النزول وهي تحويل حياة الناس إلى الأفضل وصدهم عن السيء والقبيح، وهدايتهم إلى الأقوم وخير وسيلة لترسيخ هذه المعاني هو تنزيل القرآن منجماً، ومن أمثلته (سورة عبس) التي نزلت في عبد الله بن مكتوم، ولمعرفة أسباب النزول أهمية في تجلية معانيها والوقوف على حقيقة تفسيرها، ولليتمكّن من تفسير الآيات على وجهها الصحيح، ولأهمية هذا العلم افرده العلماء بالكتابة والتأليف فيه في علم مستقل سمي بعلم (أسباب النزول). ومنهم الإمام السيوطي.

كيفية جمع القرآن وكتابته:

أي الأدوار التي مرت على ذلك. استغرق نزول القرآن من الزمن ثلاثة وعشرين عاماً. أما مسألة ترتيب وتنسيق الآيات وسور فالأحاديث تتفق على أنه ترتيب توقيفي من الوحي، والقرآن كتب كله في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وبحضوره على ما توفر من أدوات الكتابة الموجودة مثل الحجارة والسعف والجلود. مع حفظها في الصدور.

أما لماذا لم يجمع القرآن كله وبحسب ترتيبه التوقيفي في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم؟ السبب هو ضيق الوقت بين آخر آية نزلت من القرآن وبين وفاته عليه الصلاة والسلام، فقد كانت الفترة بينهما لم تزد على تسع ليالٍ. والجديد الذي قام به أبو بكر الصديق إنما هو جمع ما تفرق من الرقاع والعسب وغيرها. ثم إفراغها على صفحات ليكون كتابا واحداً.

أما عن دور عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد قام بنسخ المصحف الإمام إلى سبعة نسخ ثم إرسالها إلى الأمصار، وكان سبب عمله حتى لا يختلف الناس في قراءة القرآن. وهذا من أعظم الأدلة على أن هذا الكتاب رغم مروره وتدرجه عبر تلك الأدوار على حفظه بجميع الوسائل من الحفظ والوقاية والاهتمام والعناية، وخاصة عناية الأمة به، وتحقق وعد الله القائل: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقوله تعالى: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ).

رسم القرآن ومراحل تحسينه

أولاً: من التنقيط والتشكيل إلى آخر ما وصل إليه اليوم من طباعته، معلوم أن القرآن على عهد النبي وأبي بكر وعمر وعثمان كان خالياً من التنقيط والتشكيل، وعندما انتشر الإسلام وتوسعت الفتوحات الإسلامية خشي الصحابة من انتشار اللحن في القرآن فأمر علي كرم الله وجهه أبا أسود الدؤلي بوضع النقاط والتشكيل، وقد اتفقت كلمة علماء الأمة على ما كتبه كتاب الوحي، ومن قام بنسخ المصحف على رسم خاص بالقرآن من الإملاء، فنحن نجد في إملائه زيادات وحذف للحروف والمدود وطريقة الرسم، ولكنه يتفق مع الرسم القرشي في ذلك الوقت، إذا له إملاء خاص به من حيث كيفية كتابة الهمزة مثلاً، أو الأحرف الياءية والواوية ومن حيث الزيادة والنقص وما شابه ذلك.

ثانياً: أنه كان مجرداً عن الشكل – أي التشكل- الذي يوضّح إعرابه وعن النقط الذي يميز الأحرف المعجمة عن المهملة. وهذا الرسم استمر حتى اليوم ولم يجدوا ما يدعوا إلى مد يد التغيير إليه، بل الحذر والحيطة تدعو إلى وجوب إبقائه على شكله الأول، وتحريم أو تكريه أي تطوير كتابي فيه، تطبيقا للقاعدة الشرعية الكبرى: سدّ الذرائع. ثم ذهب إلى ترجيح الرأي بأن أبو أسود الدؤلي هو الذي قام بوضع التشكيل للقرآن ووضع علم النحو لخدمة القرآن الكريم والتشكيل بأمر من علي بن أبي طالب، ثم أمر الحجاج كتَّابه- بعد أن انتشر

التصحيف في العراق – بوضع علامات تميز الأحرف المتشابهة فجاء نصر ابن عاصم ووضع النقاط. فالتشكيل والتنقيط تكامل وجودهما في عهد الخليل بن أحمد المتوفي ١٧٩ هـ عندما ألّف كتابه في النقط والشكل. وظلت الخطوات التحسينية في رسم القرآن مطردة إلى يومنا هذا، ابتغاء تحقيق المزيد من ضبطه وتسهيل قراءته، أما الأملاء فظل كما هو على الشكل الذي كتبت به الصحف الأولى والمصاحف العثمانية. "ومن هذا الذي ذكرناه يتضح لك أن علم النحو لم يقعد ويدّون إلا خدمة لضبط القرآن، ومعظم العلوم العربية الأخرى إنما قامت لخدمة القرآن. . . وأول طباعة للقرآن الكريم كان في مدينة البندوقية في حدود سنة ١٥٣٠ م، ولكن السلطات الكنيسة أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره، ثم ظهرت طباعة إسلامية خالصة للقرآن الكريم في سانت بترسبوغ، بروسيا سنة ١٧٨٧. ثم عنيت الأستانة ابتداءً من سنة ١٨٧٧ بهذا الأمر العظيم ".

الأحرف السبعة:

معنى الأحرف السبعة: هي لغات متفرقة في القرآن مختلفة في السمع، متفرقة في المعنى أو مختلفة في السمع وفي المعنى، وزيادة كلمة ونقص أخرى، وزيادة حرف ونقص آخر، وتغيير حركات في موضع حركات أخرى، وتقديم وتأخير، ومد وقصر، وشبه ذلك مما يتعلق بجوهر الكلمة أو كيفية أدائها. فكل وجه من هذه الأوجه المختلفة يسمى حرفاً. وأطلق على مجموعها الأحرف السبعة.

وترجع الاختلاف إلى أربعة أوجه:

أولاً: أن يختلف في مد الكلمة وقصرها أو في إعرابها أو في حركات بنائها بما لا يغير معناها، كالبُخْل و البَخَل.

الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة أو في إعرابها بنائها بما يغير معناها على غير التضاد ولا يزيلها عن صورتها في الخط. مثال: (ربنا باعد بين أسفارنا) و (ربنا بعِّد بين أسفارنا)

الثالث: أن يكون الاختلاف في تبديل حرف الكلمة دون إعرابها، بما يغير المعنى، ولا يخرج عن القصد ولا يغير صورة الخط نحو: ننشرها، ننشزها.

الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب ولا يغير معناها. (إن كانت صيحة واحدة) و (إن كانت زَقية واحدة).

الخامس: أن يكون الاختلاف بما يزيل صورة الكلمة في الخط ويزيل معناها، دون أن يكون بينهما تضاد.
السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير. كقوله:(وجاءت سكرة الحق بالموت) بدلاً من (وجاءت سكرة الموت بالحق).

السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة أو النقص في الحرف والكلام، شريطة أن لا يحدث ذلك حكماً لم يقبله أحد.

ما معنى كون القرآن نزل على سبعة أحرف؟

الجواب: أي أن الله قد أذن لرسوله (صلى الله عليه وسلم)، أن يقرئ أمته القرآن على هذه الأوجه المختلفة بالحدود والضوابط التي أجملنا بيانها.

الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف: " هي التخفيف على العباد وتسهيل سبيل قراءة القرآن عليهم، ففهم العجوز والشيخ الكبير والأمي الذي لا يقرأ كتاباً. أي كانت رخصة اقتضاها حال العرب في صدر الإسلام، وكان الهدف ليقل الاختلاف بين المسلمين في القراءة".

ما مصير الأحرف السبعة؟

الجواب: مصيرها مصير كل رخصة زال العذر المسبب لها، خاصة عندما كتبوا القرآن بحرف القريش، واجمع الناس كلهم على النطق به معتمدين في ذلك على ما وجدوه مكتوباً عندهم من الرسم الصحيح المعتمد للقرآن.

أما القراءات المختلفة: إنما هى جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وإنما سوغ القراءة بها أنها موافقة لخط عثمان الذي أجمع الصحابة فمن بعدهم عليه. وهذا القدر المتفق مع الخط المعتمد للمصحف، من مجموع الأحرف السبعة، هو الذي سمي فيما بعد بالقراءات.

علوم القرآن: يقصد من علوم القرآن جميع العلوم التي تستند في مصدرها إلى القرآن مثل:
علم العربية بفروعها، وعلوم الأدب وبلاغتها، وعلوم الشريعة الإسلامية بفروعها، وعلوم التاريخ، وبعض مسائل الكونيات وأصول البحث من علوم القرآن. وفي نفس الوقت تطلق على طائفة معينة من الأبحاث

الهامة المتعلقة بالقرآن تعلقاً مباشرة وقريباً. كتفسيره، وناسخه ومنسوخه، ومكيه ومدنيه، ومحكمه ومتشابهه، وقراءاته. في كل فرع من هذه الفروع يعتبر علما قائماً بذاته،

متى ظهر هذا المصطلح؟

يقول: إن هذه العلوم لم تظهر من عصر الصحابة إنما ظهر أول ما ظهر علم تفسير القرآن كمقدمة لبقية العلوم التي تتعلق بالقرآن، وهو أساسها وإليه مردُّها، ثم ظهر علم التدوين وجمع القرآن، ثم تفرع من علم التفسير بقية العلوم الأخرى. ولم تظهر هذه العلوم في حقبة واحدة من الزمن، وإنما ظهرت متتابعة، وتكاملت خلال القرنين الثاني والثالث،

و الشافعي هو أول من أطلق هذا الاصطلاح عندما سأله الرشيد: كيف علْمك يا شافعي بكتاب الله؟ فقال الشافعي: عن أي كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين؟ فإن الله أنزل كتباً كثيرة، قال الرشيد: قد أحسنت، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم. فقال الشافعي: إن للقرآن علوماً كثيرة، فهل تسألني عن محكمه ومتشابهه، أو عن تقديمه وتأخيره أو ناسخه ومنسوخه؟ ثم أصبح مصطلحا بتداول المؤلفين له.

التفسير حقيقته، ونشأته وتطوره، ومذاهبه وشروطه:

حقيقته: علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه واستخراج أحكامه؛ واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات. أما كلمة التأويل فهي في الحقيقة ليست مرادفة للتفسير بمعناه الدقيق، ولكن كثرة استعمالها في مكان التفسير جعلها تؤدي معناها وتقوم مقامها.

نشأة التفسير وتطوره: نشأ علم التفسير في صدر الإسلام، والرسول صلى الله عليه وسلم أول من مارس التفسير، ثم الطبقة الأولى من الصحابة، ثم الطبقة الثانية من علماء التفسير وهي طبقة التابعين، والطبقة الثالثة منهم أيضاً. ويتميز عمل هؤلاء عن عمل الصحابة بظهور الكتابة والتدوين. وممن قام بتأليف تفاسير واسعة سفيان بن عيينة ت، ١٩٨هـ. والذي وصل إلينا من تلك التفاسير؛ تفسير ابن جرير؛ حيث جمع فيه المأثور بالسند وميّز بين الصحيح منه وغيره.

مذاهب التفسير وشروطه: للتفسير مذهبان

١- التزام بالوارد عن رسول الله والصحابة والتابعين دون أي زيادة على ذلك أي ما يعرف بـ (التفسير بالمأثور).

٢ – عدم التزام الاقتصار على ذلك. أي التفسير بالرأي.

أما شروط التفسير: سواء بالمأثور أو بالرأي فعلى المفسر أن يسلك في منهجه بما يلي:

الشرط الأول: التزام القول بما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، في ذلك.

والشرط الثاني: التزام الأخذ بقول الصحابة.

والثالث: التزام قواعد اللغة العربية وضوابطها ومقاييسها.

والرابع: التزام المقتضى الذي يدل عليه العلم بكتاب الله تعالى.

المكي والمدني تعريف كل منهما، خصائص كل منهما، الفائدة من معرفة ذلك:

تعريف المكي والمدني: للعلماء ثلاثة اصطلاحات في تعريف كلٍّ من المكي والمدني.

١- أن المكي هو ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة.

٢- المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

٣- المكي ما نزل من قبل الهجرة، والمدني ما نزل من بعد الهجرة، دون النظر إلى مكان النزول بالذات، والاعتبار على هذا للزمان وحده، وهذا هو أشهر وأصح الأقوال في هذا الموضوع.

خصائص كلَ منهما:

أولاً خصائص المكي:

١- ذكر قصص الأنبياء والأمم الخالية.

٢- المناقشة والحجاج وعرض الأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته.

٣- تثبيت فؤاد النبي.

٤- تغلب على المكي آياته قصيرة ذات وقع معين في الأذن والنفس.

ثانياً: خصائص الآيات المدنية فهي كالتالي:

١- البحث في الأحكام والتشريعات والمعاملات والحدود والعبادات.

٢- الأمر بالجهاد والقتال.

٣- البحث في شؤون الحكم و الشورى.

٤- وهي طويلة فيها اللين والهدوء ووعد المسلمين بالفوز والنصر.

الفائدة من معرفة هذا العلم:

تتوقف فوائد علمية كثيرة على معرفة المكي والمدني من القرآن فمن أهمها معرفة ما قد يوجد في القرآن من ناسخ ومنسوخ. وتتبع مراحل الدعوة الإسلامية. أنه يبصر القارئ والمفسر بمعنى الآية ويحجزه عن الخطأ في تفسيرها.

المبهم والمتشابه في القرآن:

عامة جمل القرآن وألفاظه إما محكم أو متشابه أو مبهم.

فالمحكم: هو ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره.

أما المبهم فهو ما قد يعرف ظاهره ولكن العقل يتوقف في تصوره وتفصيله وإدراك حقيقته.

والمتشابه فهو ما احتمل وجهين أو وجوهاً من المعنى دون وجود ما يعين واحداً منها تعييناً ظاهراً أو قاطعاً.

وللمبهم أنواع منها:

١- الأحرف المتقطعة

٢- جمل وألفاظ هي من حيث تركيبها وظاهر دلالتها أمر واضح ومعلوم؛ ولكن فيها إبهاماً من حيث الزمن المتعلق بها أو حيث أسمار المشار إليهم فيها، أو من حيث نكارة وغرابة المتحدث عنه فيها.

المتشابه: المقصود منه حكمه:

المقصود من المتشابه تلك الجمل التي تنازعها أكثر من معنى واحد، وتقع من جهة المجاز واستعماله. . . والآن يستعمل لكل ما غَمُضَ ودقَّ. وذكر خلاف العلماء والمفسرون حول الآيات المتشابهات ورجح رأي الخلف الذين يذهبون إلى تأويل الآيات المتشابهات؛ خاصة التي تتعلق بصفات الله تعالى بعد اتفاقهم على

أن يفسروها على ضوء المحكم من الآيات القرآنية. وقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). ورد على ابن تيمية الذي رفض رأي الخلف في التأويل، وهو نفسه الذي وقع في التأويل.

المقصود بالقراءات:

ما قد يعتري اللفظ من أوجه النطق والأداء كالمد والقصر والتخفيف والتثقيل وغيرها مما قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم ونقل عنه بالسند الصحيح المتواتر.

الحكمة من مشروعيتها: هي تسهيل واتساع في تلاوة القرآن خاصة على القبائل العربية المختلفة، ويتقف جميع القبائل على الإعجاز القرآني في نظمه وبيانه. . . إلخ. ومعنى تحديدها بالسبعة والسبب في حصرهم بالسبع؛ لأن من اهتموا بالقراءات هم سبعة من العلماء القراءة. والقراءات ليست محصورة بهذا العدد. ولكن سبب اشتهار هؤلاء السبعة دون غيرهم. واخذوا لها ضابط علمي: وهو أن كل قراءة صح سندها إلى رسول الله، ووافقت خط المصحف العثماني ولو احتمالاً. والقراءة التي لم تتوفر فيها شروط القراءة تعتبر شاذة.

والفرق بين القراءات المتواترة والشاذة: هو الشهرة والتواتر. أما حكم القراءة الشاذة فلا يقرأ القرآن بشيء من ذلك، في صلاة أو نسك أو تلاوة.

منهج القرآن وأسلوبه، التصوير في القرآن الكريم:

أسلوب القرآن دراسة عامة لخصائصه:

فالخاصة الأولى: جريانه على نسق بديع خارج عن المألوف والمعروف من نظام جميع العرب، وله أسلوبه الخاص به لا تجد منه عند أي فن من الفنون العربية المعهودة.

والخاصة الثانية: جريانه على مستوى رفيع واحد على الرغم من تنوع المعاني والموضوعات. كما أنه يجري على مستوى رفيع واحد على الرغم من تنوع المعاني والموضوعات، مع جمال اللفظ ورقة الصياغة وروعة التعبير،

أما الخاصة الثالثة: صلاحية صياغته لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم. وهي خاصَة لا تستطيع أن تجدها في غير هذا الكلام العزيز.

والخاصية الرابعة: ظاهرة التكرار للألفاظ والمعاني.

والخامس: تداخل بحوثه وموضوعاته. وذكر لكل خاصية أكثر من مثال، فمثلاً الخاصية الخامسة فأنت لا تجد فيه ما تجده في عامة المؤلفات والكتب الأخرى من التنسيق والتبويب حسب الموضوعات، وتصنيف البحوث مستقلة عن بعضها. وإنما تجد عامة موضوعاته وأبحاثه لاحقة ببعضها دونما فاصل بينها، وقد تجدها متمازجة متداخلة في بعضها في كثير من السور والآيات.

إعجاز القرآن تعريفه:

أن القرآن قد سما في علوه إلى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله؛ سواء كان هذا العلو في بلاغته أو تشريعه أو مغيباته.

وهناك تعريف أخر وهو: أن الله قد صرَّف قدرات عباده وسلب همتهم وحبس ألسنتهم عن الإتيان بمثله. وهو قول بعض المعتزلة ومنهم سيار النظام وهو قول باطل.

ووجوه الإعجاز القرآني:

أولاً: الإعجاز اللفظي أو البلاغي: أي عجيب تأليفه وبديع نظمه وسموه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز الطوق البشر عن الإتيان بمثله.

ومصدر الإعجاز القرآني أنه مبرء من كل النقائص والثغرات التي توجد في الإنسان.

مظاهر الإعجاز في القرآن:

١- الكلمة القرآنية: أي للكلمة القرآنية مزية لا تجدها في الكلمات التي يتكون منها كلام الناس وتعابيرهم مهما سمت في مدارج البلاغة والبيان.

٢- الجملة القرآنية: ويتلخص في ثلاثة أمور

أ- الاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي.

ب- دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى.

ت- إخراجها المعنى المجرد في مظهر الأمر المحسوس.

ثانياً: الإعجاز بالغيبيات:

والمقصود بالغيبيات تلك الإخبارات المتعلقة بأحداث مقبلة.

ثالثاً: الإعجاز بالتشريع:

أي في القرآن تشريعاً أصيلاً وأحكاماً مهمة وضرورية لمصالح الناس لا غنى لهم عنه. وهذا الإعجاز حقيقة بارزة لا تقبل ريباً ولا يكتنفها غموض.

رابعاً: مظهر جلال الربوبية: أي كلام الله تعالى عن ذاته ونفسيته، فتشع منه رهبة الربوبية وينشر من حوله جبروت الألوهية. وهذا ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله أيضاً. والذين كتبوا في الإعجاز كثير أولهم الجاحظ وأخرهم سيد قطب.

موضوعات القرآن وطريقة عرضها:

تدور بحوث القرآن كلها على غرض رئيسي واحد، هو دعوة الناس كلهم إلى أن يكونوا عبيداً لله عز وجل بالفكر والاختيار كما خلقهم عبيداً له بالجبر والاضطرار.

وموضوعات القرآن متنوعة وأول موضوع هو العقيدة من وحدانية وبعث والحساب والصراط والجنة والنار. وقصص الأمم الماضية.

التصوير في القرآن مظهره ووسائله:

المعروف عند علماء العربية والبيان أن الإنسان إذا خاطب أخر يخاطب عقله أما القرآن فيخاطب كلاً من العقل والخيال والشعور معاً.

ومظاهر التصوير:

المظهر الأول: هو إخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة والمتخيلة.

المظهر الثاني: تحويل الصور من شكل صامت إلى منظر متحرك حيَ.

المظهر الثالث: تضخم المنظر وتجسيمه حينما يكون الجو والمشهد يقتضيان ذلك. عن طريق الاستعارة أو المجاز مرسلاً، أو تشبيهاً وتمثيلاً. أو عن طريق الوصف التقريبي.

مثال ذلك قول الله تعالى: (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

فقد صور أولاً التألم من إعراضهم، في صورة شيء قد كبر وضخم حجمه ينوء الرسول صلى الله عليه وسلم تحت ثقله ويضيق ذرعاً به. ثم صور الجهد الذي لن يأتي منه بطائل إن هو أجهد نفسه به، بصورة من يريد أن يتخلص من كل الثقل العالق به، فهو قلق وبحث دائبين، نحو كل الجهات، وخلف كل حجاب وستر، ليعثر على ما قد ينشط به من هذا العقال المتشبث به. فأنت ترى الآية قد أخرجت هذا المعنى الفكري في مظهر شيء محسوس، ثم بثَّ فيه الحركة والحياة كما قد رأيت، ثم جسّمت الفكرة نفسها في هذه الصورة الحية المتحركة، وخاطبت بذلك كله الخيال قبل أن تخاطب مجرد الفكر والذهن. والقرآن الكريم يفيض فيه الصور من هذا النوع. وقد ذكر المؤلف إحدى عشرة صورة منها فقط لتقريب معنى التصوير في القرآن الكريم.

الأمثال في القرآن الكريم:

يستخدم الشارع جل جلاله في القرآن الأمثال كثيراً؛ لأن بها تبرز أهم الخصائص التي يريدها البيان الإلهي من الأمثال، وتظهر في أمثلة القرآن وعلاقة ذلك ببلاغته وإعجازه.

القصة في القرآن أغراضها وخصائها:

القصد منها تحقيق الغرض الكلي الذي تنزل القرآن من أجله.

أغراض القصة ثلاثة وهي:

أولاً: إثبات الوحي الإلهي والرسالة النبوية لرسول الله.

والثاني: التنبيه على أن الدين السماوي واحد والرسالات واحدة لا تعارض فيها ولا اختلاف.

والثالث: تثبيت فؤاد النبي في مجال الدعوة.

منهج القصة في القرآن:

منهج قائم على أروع مظاهر الجمال الفني والإشراق البياني، وهو منهج يعتمد على مظاهر منها:

١- التكرار
٢- الاقتصار على الغرض من القصة.
٣- إقحام النصائح والعظات في ثنايا القصة
٤- العرض التصويري.
٥- التنويع في الاستهلال بالقصة ووضع المدخل إليها.
٦- العرض التمثيلي.

والهدف من القصة في القرآن هو تحقيق هدف تربوي من كل قصة، بالإضافة إلى أنه من أيسر طرق إلى مقر اليقين من العقل ومكمن الوجدان من القلب القيمة التاريخية لقصص القرآن: أنها قصص ما عرفها المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، وهذا أيضا من أوجه إعجاز القرآن الكريم. ورد على أولئك الذين يدعون أنها كانت من القصص الشعبية.

المنهج التربوي في القرآن: يهدف القرآن الكريم إلى هداية الناس. حتى يصبحوا عبيداً لله بالطوع والاختيار، كما خلقهم عبيداً له بالفطرة والإجبار. فالقرآن الكريم مصدر للتربية وفيه مظاهر كثيرة للتربية فمن مظاهر التربية:

المظهر الأول: أنه أصبغ كل المواضيع التي طرقها وعالجها بصبغة الهدي والموعظة والإرشاد.

المظهر الثاني: أخذ الناس بالتدرج في الأحكام.

المظهر الثالث: السير بالناس نحو السهولة واليسر.

المظهر الرابع: أنه يضع المتأل في آياته في حالة وسطى بين الخوف من عذاب الله تعالى، ورجاء رحمته وعفوه. ويتبع القرآن لتحقيق ذلك أسلوبين:

الأول: يصف المشركين ومصيرهم في الآخرة.

والثاني: يذكر دائما الجنة بعد النار أو النار بعد الجنة حتى لا يرغب راغب رغبة تغريه بالقعود والكسل، ولا يرهب الإنسان رهبة تقذف به إلى اليأس. ومثال ذلك قول الله تعالى: (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ). النزعة الإنسانية في القرآن: أي أن القرآن الكريم جاء لعامة البشر وليس للعرب فقط لذا لم يتأثر بالبيئة العربية بل تجلى فيه النزعة الإنسانية في عامة موضوعاته من عقيدة وتشريع وأخلاق ومبادئ فالقرآن نزل لجميع البشر ولكل زمان ومكان.

فلسفة القرآن: أي أن فلسفة القرآن عن الكون والإنسان والحياة فلسفة تؤسس حضارة إنسانية شاملة. هل من الممكن ترجمة القرآن؟ ثم طرح سؤلاً جديداً وأجاب عنها بكل صراحة، وهو هل من الممكن ترجمة القرآن الكريم؟ وهل يجوز الإقدام على ترجمته شرعاً؟ وإذا جازت شرعاً فهل تقوم الترجمة مقام القرآن الأصلي، في التعبد والتلاوة وفي صحة الصلاة بها؟ فأجاب بأن الترجمة الحرفية مستحيلة.

ولكن نقل المعنى العام من خلال نقل معاني الكلمات الجزئية ممكن ولكنه لم يفتي بجواز الترجمة، إنما أجاز تفسر القرآن باللغة التي يريدون ترجمة القرآن إليها فالتفسير هو الذي يفي بهذا الغرض لا الترجمة المزعومة. وهذا التفسير أيضاً لا تصح بها الصلاة، ولا يصح به التعبد..

القسم الثالث دراسات تطبيقية: في هذا القسم بعض أمثلة من القرآن الكريم نقدمها كدراسات تطبيقية عملية توضح تاريخ القرآن ومنهج القرآن

فنختار خمسة نصوص من الكتاب: نصاً في الإلهيات، وأخر في الوصف وثالثاً في المبادئ والإنسانيات، ورابعاً في القصص، وخامساً في الحجاج والنقاش.

في الإلهيات (من سورة الرعد من آية ٨. إلى آية ١٤) (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ، سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ، لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ،

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ، لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) هذه الآيات تأتي بعد قوله تعالى متحدثاً عن الكافرين: (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) فهي رد على تعجبهم من أن يبعثوا مرة أخرى وذلك من خلال صفتين من أهم صفات الألوهية في ذاته سبحانه وتعالى. الصفة الأولى: إنه مطلع على دقائق الأشياء كلها. الصفة الثانية: قدرته الباهرة وسطوته القاهرة. أي لا تخفى عليه شيء وهو يعلم الغيب ومن الغيب الذي يعلمه مثالاً: مراحل تخليق الجنين في بطن أمه، والقرآن يصور هذه الحقائق بأقل الكلمات والجمل. وهذا العلم والتخليق ليس بالمصادفة إنما بنظام ووفق إرادة إلهية جازمة. ثم جاءت الآية الثانية لتضع القاعدة العامة: عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. والغرض من هذا أن يثبت عظمة الله تعالى وأنه يستوي في علمه الغائب والمشاهد، وصور ذلك كله بتصوير دقيق ليبرهن على أن لله تعالى له إحاطة كاملة لكل شيء. ثم جاءت الآية الرابعة لتثبت نوعا أخر من الغيب وهو الحديث عن الملائكة، ثم قدم أمورا دالة على قدرة الله وباهر حكمته من خلال الاستدلال بالرعد والبرق، والهدف منه تخويف الإنسان ثم تطمينه، ثم ذكر السحاب الثقال وصور الصواعق وصورها لنا بصورة حسية حتى نفهم تنزيهه عما يقوله المبطلون فهو قهار السموات، ليستحضر في ذهنه التخويف، ثم انتقل إلى الحديث عن مجادلة الكفار في وجود الله تعالى ووحدانيته وقضية البعث. ثم ختم بأن الله وحده صاحب هذه الدعوة، فهو الذي يستجيب من دون سائر المخلوقات. لأن دعاء الكافرين تذهب في دروب ضائعة خاسرة.

الخاتمة ثم ختم الكتاب بكلمة أخيرة دعا فيها كل من قرأ الكتاب أن يمعن النظر في كل تلك الخصائص، ألا يدل ذلك كله على أنه ما ينبغي أن يكون من صنع البشر، وليس أكذوبة كذب بها محمد على ربه، وأنه كلام فوق طاقة البشر، ألم تدرك حقيقة الإعجاز في هذا الكتاب، ألا يدفع كل هذا إلى تصديقه ثم العمل بما فيه لتأمن من الوعيد الذي جاء فيه، وعملك بهذا الكتاب لا يحرمك من السعادة بل يوصلك إلى السعادة التي ترجوها؛ لأن الله لم يشرع لعباده هذا المنهج الحق إلا إصلاحاً لشأنهم وتحقيقاً لسعادتهم، في حين يشقى الملحدون والجاحدون في الدنيا حتى بالنعيم ويختقون حتى بأسباب السعادة. والواقع خير دليل فالمؤمنون

يظلون في نعيم السعادة حتى وإن تآلبت عليهم الدنيا ونال منهم الضر والبلاء، ومصداق ذلك قول الله تعالى: ((من عمل صالحاً من ذكر وأنثى، وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)).